في الفناء الخلفي حافي القدمين»[٣١]. والأدهى من هذا أن نجد الأب المتصابي يحتال على ابنه ويحرمه من ميراث أمه. وما يقال في «ديمتري» يقال في «إيفان» و«أليوشا» و«سمردياكوف» وخاصة هذا الأخير الذي لم يكن الأب «فيدور» ليعترف بأنه ابنه بالمرة.

إن هذه العلاقات المضطربة أو الغريبة بين أفراد أسرة «كارامازوف» تعد صورة لفساد المجتمع واضطراب القيم والمعايير الإنسانية في ظل نظامه القائم. وقد استطاع «هيبوليت كيريلوفتش» ممثل النيابة أن يضع يده على هذه الحقيقة حين راح يؤكد أن صفات أفراد هذه الأسرة تعكس صفات المجتمع المعاصر آنذاك، وأن «فيدور» هو نموذج الأب الروسي، وأن «ديمتري» هو نموذج الإبن[٣٢].

وقد يبدو لأول وهلة أنه من ا لمستحيل أن توجد عائلة مثل هذه العائلة التي لا وجود لها إلا في دماغ دوستويفسكي، ولكن المتأمل يرى أن الإخوة كارامازوف «من أقوى الصور ظهوراً، بل هم أحياء أكثر من الناس الذين يعيشون في الحياة»[٣٣].

وإذن فإن كل من ينكر على «دوستويفسكي» تلك اللوحات الفظيعة التي عرضها في «الإخوة كارامازوف» أو في غيرها، يتنكب جادة الصواب. إنه ينبغي علينا ألا نلوم الكاتب حين نقل إلينا تلك اللوحات الرهيبة، بل يجب علينا أن نلوم المجتمع الذي تمثله.

وإذا انتقلنا إلى الكاتب الروائي الفرنسي «أونوريه دي بالزاك» نجده يكاد يكون الكاتب الوحيد في عصره الذي «أدرك أن مجتمعه سائر إلى الانهيار»[٣٤].

إن «بالزاك» ينفذ بحسه الدقيق إلى التناقضات التي تقوم عليها الحركة البورجوازية الفرنسية، ويمثل الفنان الصادق الذي تفتحت بصيرته على تلك «النتائج الصارمة المقلقة للثورة البورجوازية»[٣٥] فأبى أن يتغاضى عنها وأن يتملقها وجند قلمه لانتقادها بالرغم من أنه كان ينتمي إلى البورجوازيين الملكيين[٣٦].